ألما المحمد *

نار العشق في جلال الدين الرُّومي

(الصفحات ١٧٧- ١٩٤)

ملخّص

جلال الدين الرومي شخصية ذاع صيتها في الشرق والغرب. الباحثة في هذا المقال تسلّط الضوء على الخلفية الثقافية لهذا العارف الكبير، وترى أن الإيمان عنده اتباع الشرع وإعمال العقل والعمل على تزكية النفس وتطهيرها. وتذهب الى أن اشتعال نار الحبّ في صدر جلال الدين هو الانشغال الدائم للوصول إلى القيم والأحكام والمعايير. وكتاب *المثنوي* هو سبيل الوصول إلى الحقيقة العرفانية، وتعريف المثنوي بأنه شعر على وزن المزدوج نظرة قاصرة على الشكل إذ هو مجموعة من الروابط الثنائية بين الإنسان وربه وأخيه الإنسان والكون الذي يحيطه. أما قصيدة الناي في بداية كتاب *المثنوي* فتدور حول الانجذاب الذي يحصل عند الإنسان حين يطهّر نفسه ويصقل عقله.

ثقافة جلال الدين الرُّومي

كان واقع القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) موزعًا بين تناقضات كثيرة تتجاذبها العوامل الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية.

يغلب على هذا العصر طابع النزاعات الدينية الداخلية والقلق والاضطرابات من جراء الغزو الخارجي، إذ امتد ذلك على رقعة واسعة من العالم الإسلامي شملت شرق

* - باحثة سورية متخصصة في مولانا جلال الدين الرومي.

إيران والأناضول وشرق أوروبا والعراق وبلاد الشام.

وبالرغم من عظم الكارثة السياسية التي حلت بالعالم الإسلامي، كان الإشعاع الفكري لا يزال ينير سماء العالم المنكوب وكانت مدينة بلخ من أهم مراكز الإشعاع الفكري والحضاري، وقد دعيت أم الحضارة للبلاد، لأنها الأسبق إلى الحضارة والثقافة، إذ كان موقعها الجغرافي بين بلاد ما وراء النهر وبلاد فارس وشبه القارة الهندية مميزًا من حيث هي نقطة تلاقي الثقافات المختلفة ومركز علمي وحضاري، فقد كانت واسطة انتقال التعاليم البوذية إلى العالم الإسلامي وكذلك شرقي بلاد الروم واليونان.

وبعد ظهور الإسلام نهلت بلخ من معينه ومزج علماؤها بين العلوم الإسلامية والمنطق والفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والديانات الفارسية القديمة كالزرداشتية والمانوية وغيرهما. وقد نظمت في بلخ المناهج الدراسية، كما كانت تقام الحفلات والمناظرات بين علماء بلخ وعلماء ما وراء النهر، ينتج عنه احتكاك ثقافي وتبادل معرفي، فمنحت بذلك إجازات التدريس والشهادات الدراسية، وتخرّج من مدارسها ومعاهدها من حمل راية العلم والدين والتصوُّف. وفي القرنين الخامس والسادس الهجريين أخذت الفلسفة مكانتها في المناهج الدراسية إضافة إلى علوم الدين، وذلك بعد انتشار آراء ابن سينا والفارابي كما أدرج نقد الغزالي للفلسفة، فانتعش بذلك النشاط العلمي وراح المتصوفة يلمُّون بالتصوف علمًا بعد أن كان معروفًا في الصوامع وحلقات الذكر.

وكانت تجري مناظرات بين علماء الفلسفة وعلماء التصوف، وامتد تأثير الفلسفة إلى بلاط الحكام مما أثر ذلك على نفسية المتصوفة فرحل بعضهم.

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد في هجرة العلماء، بل كان هناك سبب أكثر أهمية، وهو اجتياح المغول بلاد فارس عامة ومنها بلخ موطن الرومي.

وكانت أسرة جلال الدين واحدة من الأسر التي رحلت بعيدًا عن الدمار والخراب والقتل الذي لحق بالبلاد وأهلها.

بدأت الرحلة سنة ٦١٧ هجرية (١٢٢٠ ميلادية) كانت المحطة الأولى في نيسابور حيث التقت الأسرة بالشاعر الصوفي فريد الدين العطار الذي أدرك قابليات جلال الدين الفتى وقدراته، فأهداه نسخة من كتابه *أسرار نامه* وقال عنه:

إنه سيؤجج النار في قلوب العشاق الصوفيين[1] . ولدى مرورهم بالعراق نزلوا في بغداد، والتقوا الصوفي الكبير شهاب الدين السهروردي صاحب كتاب *عوارف المعارف*، وحين حط بهم الرحال في مدينة دمشق التقوا شيخ الصوفية وفيلسوفها محي الدين ابن عربي الذي ما إن رأى جلال الدين يسير خلف والده حتى قال: «سبحان الله محيط يمشي خلف بحيرة».

ثم أقاموا مدة في لارندا وبعدها لبُّوا دعوة السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباز للإقامة بقونية سنة ٦١٨ للهجرة، وقد استقر المقام بجلال الدين وأسرته في قونية، فقد مرت عليها إحدى عشرة حضارة، كما انتشرت فيها الديانتان اليهودية والمسيحية.

في تلك المدينة العريقة راح يعمل جلال الدين الرومي معلمًا وواعظًا بعد وفاة والده بهاء الدين ولد.

وفي سنة ٦٣٠ للهجرة اتجه إلى حلب وأقام هناك في المدرسة الحلاوية واشتغل بالتحصيل، وتُعد هذه المدرسة من أهم مراكز العلم المعروفة في حلب، وقد تتلمذ جلال الدين الرومي في هذه المدرسة على كمال الدين أبي القاسم عمرو بن أحمد المعروف بابن العديم في الفقه الحنفي وسائر العلوم الدينية.

وبعد سنوات عديدة انتقل إلى المدرسة المقدسية في دمشق وأقام فيها أربع سنوات، إذ كانت من أهم المراكز العلمية الإسلامية الهامة، وقد التقى فيها بالشيخ محي الدين ابن عربي كما التقى بكل من سعد الدين الحموي وأوحد الدين الكرماني وصدر الدين القونوي، الذين تركوا أثرًا كبيرًا في تفكير جلال الدين الرومي، ثم عاد الرومي فيما بعد إلى قونية تلبية لدعوة مريدي والده فاشتغل بالوعظ والإرشاد.

إن التأثير الحقيقي في ثقافة جلال الدين الرومي كان لأساتذته الذين تتلمذ عليهم وهم: والده بهاء الدين ولد، وبرهان الدين محقق الترمذي ثم شمس الدين التبريزي.

كان بهاء الدين ولد الملقب سلطان العلماء والد جلال الدين أول أستاذ له، فقد درس عليه علوم عصره من تفسير وحديث ونحو وصرف، وحصل على إجازة في التدريس من كبار العلماء في بلخ، وأقبل عليه الناس يسمعون منه ويتتلمذون عليه، وبعد سنوات بدأ نشاطه في التصوف إذ كان من أصحاب المدرسة الكبروية، فتتلمذ

على يد نجم الدين كبرى صانع الأولياء. وكان يوزع أوقاته بين علم القال وعلم الحال والوعظ والخطابة، فيدرّس العلوم من الصباح حتى الظهر، وعند صلاة العصر كان يشرح للتلاميذ حقائق التصوف وعلم الإشارة والحال. أما يوم الجمعة فكان يلقي الوعظ والخطاب في المساجد. كان عالمًا متواضعًا ولم يكن يعدُّ نفسه أهلاً للتأليف وللتصنيف، لذلك لم يظهر مؤلفه المعارف إلا بعد وفاته.

وقد عُرف عنه أنه كان مجرَّد فقيه إلا أن كتابه *المعارف* يدل على تناسق رائع بين الشريعة والطريقة الحقيقة. ولجلال الدين الرومي صلة وثيقة بكتاب والده حيث تأثر بآراء والده والواردة في كتابه *المعارف* عندما ألف ديوانه *المثنوي*.

هكذا نجد أن والد جلال الدين قد أمدَّه لا بالعلوم النقلية فحسب بل في مجال علوم الطريقة أيضًا. أدرك جلال الدين أنه حصّل من علوم الظاهر كل ما يمكن تحصيله كما كان مغرمًا بالشعر العربي وبالمتنبي خاصة، ولم يكتف بما أعطاه والده من علم بل أخذ يرتّب مؤلفاته ويتعمق فيها. يقول: لا أزال بحاجة للاستفادة مما تركه والدي. لقد تأثر كثيرًا بأقوال والده في دراسة أسرار التصوف متمكسًا بآرائه وملمًّا بكتاب المعارف، فانكب على قراءته يشير إلى أسراره في حلقاته الدرسية ويحلّ غوامضه. ومما يدل على تأثر جلال الدين بمؤلفات والده أنه تعرض في كتابه فيه *ما فيه* وفي ديوانه *المثنوي* بما ورد في *كتاب المعارف* بالنص والروح، ويبدو التشابه واضحًا في تفريعات القصص والأمثال بين كتاب الوالد وكتاب الولد.

أما أستاذه برهان الدين محقق الترمذي الذي قدم إلى قونية بعد وفاة أستاذه بهاء الدين ولد، فقد وجد جلال الدين يشتغل بالوعظ والإرشاد فأراد له أن يحل محل والده في علم القال والحال. وظل جلال الدين تسع سنوات يشتغل في الرياضة وتصفية الباطن وتزكية النفس. لم يكن كل هذا التحصيل المعرفي يطفئ ظمأ نفسه التواقة إلى الفيض المعرفي الذي يروي عطشه، في الوقت نفسه كان هناك من يبحث بحثًا مضنيًا عمن يكون لديه الشوق نفسه والتوق ذاته إلى المعرفة، إنه شمس التبريزي الذي قدم إلى قونية للقاء جلال الدين. يقول شمس الدين في ذلك: «لقد أردت شخصًا من جنسي أجعله قبلة لي وأتجه إليه.. فقالت نفسي وقت مناجاتي: إلهي أليس هناك مخلوق من خاصتك يتحمل

صحبتي؟ فوصلت إشارة في الحال من عالم الغيب، إن أردت أنيسًا وصاحبًا فاذهب إلى بلاد الروم، وعلى الفور أتيت إلى قونية»[٢].

كانت شمس في سن الخامسة والثلاثين عندما اجتاح المغول بلاد فارس، ولم تتحدث المصادر عن حياته وعن العلوم التي تلقاها، ولكن يمكن أن نفهم شيئًا ما عن ثقافته من خلال أقواله وعلاقته بجلال الدين الرومي.

كانت أفكار شمس تعتبر لأول وهلة مناقضة لما يؤمن به المتصوفة لخروجه على المألوف، لقد كان وحيدًا منفردًا متميزًا بتصرفاته وأقواله وأفكاره وتعليقاته ساخرًا من كل ما هو مألوف ومعترف به ومتعارف عليه، وكان يحس أن بداخله شيئًا ما، لم يدركه شيوخه، وقد قضى حياته في سياحات، ولم يكن ينزل في التكايا والزوايا بل في الخانات، أما لباسه فلم يكن يدل على أنه من أهل العرفان، ولُقبّ بالدرويش المتجوِّل. لقد كانت آراء شمس تبريز المتفردة وغير المألوفة سببًا في انجذاب جلال الدين الرومي إليه، كانجذاب العطشان إلى الماء، وقد عبّر جلال الدين عن ذلك بقوله: «إذا كان العطاش يَنشدون الماء من العالم فإن الماء أيضًا ينشد العطاش في العالم»[٣]. وهذه الكلمات تختصر فلسفة العشق والشوق في فكر جلال الدين الرومي.

كان يبحث عمن يخرجه من قوقعة التقليد ويساعده على تفجير طاقاته الكامنة، إذ لم يكن مقتنعًا بما وصل إليه من علم، ولم يكتف بمهنة التعليم والوعظ التي أوكلت إليه، ولكنه لم يكن يعرف الطريق ولم تكن السبل مفتوحة أمامه إلى أن ظهر شمس تبريز في حياته. ومن بعض أفكار شمس رأيه في الإسلام إذ يقول: «ليس عندنا الإسلام هو الوارد على الشخص مرة واحدة، بل الإسلام والكفر يتبادلان، فالشخص يسلم ويكفر ثم يسلم ويكفر إلى أن يسلم، وفي كل مرة من إسلامه يترك شيئًا من متطلبات نفسه الأمّارة بالسوء، فالإسلام عنده ثورة مستمرة في الداخل، والهدف من ذلك الوصول إلى المقصد الأسمى، والحد الفاصل بين الكفر والإيمان أمر نسبي، فربما يكون الأمر إيمانًا عند شخص وكفرًا عند آخر، وعلينا أن نعرف الكفر من الإيمان بميزان الحقيقة. يدلل هذا القول على فهم شمس الدين الدقيق للإسلام وآلية التفكير به والعمل من خلاله».

أما الدنيا ففي رأيه أنها ليست خيرًا ولا شرًا والإنسان هوالذي يجعلها خيرًا أو شرًا،

وهذه الفكرة منطقية جدًا فالإنسان بمقدار ما يفكر ويعمل ينعكس عمله وتفكيره على الدنيا، فالخير والشر ليسا خارج الإنسان بل هو الذي يعكس ما بداخله على الخارج، فإن كان بداخله خير ينعكس خيرًا، وإن كان بداخله شر ينعكس شرًا. والخير والشر في الإنسان ليسا متأصلين فيه، بل هما نتاج تفكيره وأفعاله.

ويتحدث عن التقليد وعدم الذهاب خلف كل من يدعي الولاية. يقول في ذلك: «لا يليق بمن يقلدني أن يقلدني في أعمالي كلها» إنه يدرك ما تعوده الناس من الذهاب وراء كل من يكون معروفًا من غير تعمق في أعماله، كما يدرك ما على الشيخ المتبع من واجب وهو التصريح بكيفية أعماله حتى لا يسيء إلى الناس ولا يقع الناس في الخطأ، وهذا يدل على صراحته الكاملة في إظهار الحق واحترازه عن الغرور والكبرياء. إن فهمه العميق لهذا الجانب الهام من العلاقات الفكرية يدلل على وضوح رؤيته لمشكلة خطيرة، هي مشكلة التبعية الفكرية والتقليد الأعمى دون تدقيق ومن غير استخدام للعقل.

أما الإيمان عنده فيزيل الاضطرابات النفسية، والمؤمن هو الذي لا يتحيَّر في أمره. ولما كان يدركه من وجود اضطرابات نفسية وسياسية في المجتمع، فيوصي الناس بالنضال ضد هذه العقبات عن طريق الإيمان.

والإيمان لديه هو اتباع الشرع وإعمال العقل والعمل على تزكية النفس وتطهيرها. إن آراءه تشير إلى منطقية في التفكير ودقة في فهم الأحكام ومستوى عال في التطبيق. ذلك هو شمس تبريز الذي قدم إلى قونية وهو ابن الستين، باحثًا عمن يحمل معه هذا العلم الغزير، فكان لقاؤه بجلال الدين الذي وجد لديه الشوق نفسه إلى تلقي معارف جديدة.. كانت أسئلة شمس الدين التي طرحها على جلال الدين تحمل في أعماقها تحريضًا على التفكير والسعي إلى المعرفة، كانت أسئلته نوعية محيِّرة لا يمكن الإجابة عليها مباشرة، يقول شمس: ما المقصود من الرياضات والعلوم؟ رد جلال الدين بقوله: «الاطلاع على آداب الشرع» قال شمس الدين: «لا بل الوصول إلى المعلوم» وذكر قول السنائي:

«إن العلم الذي لا يحرر النفس من النفس فإن الجهل خير منه» وقد بين له أن كثرة القراءة في المخطوطات لن تجعله مدركًا للحقائق كما لو قرأ كتاب الحياة ومخطوط القلب. إن الاستمرار في ذلك ضياع للوقت وفناء للحياة من غير طائل، وإن للحياة معنى

وهدفًا أسمى من المرتبة والمكانة والشهرة.

إن تعليم شمس الدين لجلال الدين أشبه ما يكون بفصله عن حالة السبات التي يغط فيها، ويدفعه للبحث عن الله سبحانه، لذا ظل جلال الدين يعترف له بحب وعرفان لا حدود لهما طوال حياته. يقول جلال الدين: «إن الشمس هو الذي أراني طريق الحقيقة وهو الذي أدين له في إيماني ويقيني» لقد فتح عينيه على نافذة الحياة ، وكان ذلك إيقاظًا وتفتحًا في ذهن الرومي واتساعًا في إدراكه وفهمه، كان ذلك ثورة على الداخل وإعادة صياغة للعقل والتفكير عند جلال الدين.

هذه العلاقة النوعية الفريدة بين شمس والرومي عبّر عنها سلطان ولد ابن جلال الدين بقوله: «عشق مولانا شمس الدين كبحث موسى عن الخضر، فمع وجود مقام النبوة والرسالة ووصوله إلى مرتبة كليم الله، فقد طلب رجالا لله، وكذلك مولانا مع كمال الجلالة صرف الأيام في طلب الأكمل حتى توصل إلى شمس المستور في قباب الغيرة وصار مريده ووضع رأسه عند قدميه وغرق كليًا في أنواره»[٤].

إن المشابهة هنا تكمن في آلية العلاقة بين كل من الطرفين، إنها رحلة معرفية، رحلة العقل لوضع نظام في العلاقة بين الإنسان والكون، بين الداخل والخارج، بين الجزئي المحدود والمطلق الكلي اللامحدود.

إن رحلة العقل هذه ما كانت لتتم لولا تلك العلاقة الإنسانية التي تقوم على التخلّي عن الأنا، وهو شرط أساس للوصول إلى الهدف الأسمى والمعيار الأعلى وهو السر الكامن وراء الإنسان، ووراء كل الأديان والفلسفات.

لقد أدت هذه الرحلة العقلية المعرفية إلى استقطاب جلال الدين الرومي بكليّته، فهجر أصدقاءه ومريديه الذين لم يرق لهم الأمر، فجعلوا يظهرون تذمرهم من هذا الرجل الذي سلبهم شيخهم، وشعر شمس الدين بهذا الأمر فغادر قونية إلى دمشق فضاق جلال الدين بغياب مرشده، فأرسل ولده سلطان ولد إثره إلى دمشق وحمَّله أبياتًا من الشعر يقوله فيها:

أنت كالشمس إذا دنت ونأت يا قريباً إلينا تعال

عاد شمس الدين ثانية إلى قونية وفرح جلال الدين بلقائه وزوَّجه إحدى الفتيات

اللائي ربين في بيته، ولكن تعاظم حسد العائلة والمريدين، فما لبث أن اختفى شمس الدين بعد وفاة زوجه سنة خمس وأربعين وستمائة للهجرة. أما جلال الدين فقد أدرك أن لا عودة ترجى لأستاذه الراحل. كان يقول:

ليست هذه الأرض ترابًا إنها إناء مترع بالدم

من دم العشاق، من جرح سيد الملوك، لقد أدرك أن الموت غيَّب أحب الناس إلى قلبه. وأقرب العقول إلى عقله، فغرق في حزن عميق. ولكن عزاءه أن شمس تبريز يعيش في داخله، إذ تلاقى معه في تناغم فكري واحد، وفي الحالة الذهنية المنفتحة نفسها، وقد عبر عن ذلك بقوله: «رغم أننا بعيدون عنه في الجسد دون جسد أو روح، نحن الاثنان نور واحد، في إمكانك أن تراه إذا شئت أو في إمكانك أن تراني، أنا هو وهو أنا» إن هذا الرحيل المؤلم قد استثار وجدان جلال الدين فتبدل حاله إلى وجود فني مطلق، شعر وموسيقى، بل موسيقى يعبَّر عنها في قالب الشعر، كما أنشأ الحفل الموسيقي المعروف بالسماع.

ويصفه سلطان ولد بقوله: «لم يتوقف عن الاستماع إلى الموسيقى وعن رقص السماع، لم يهدأ لا في النهار ولا في الليل، كان عالمًا ثم غدا شاعرًا، كان ناسكًا ثم غدا ثملاً بالحب، لا من خمرة العنب، فهو لا يشرب شيئًا سوى الخمرة من دنان النور»[٥].

إن كلمات سلطان ولد هذه تدل على هذا الانقلاب الجذري في حياة جلال الدين، ويمكن القول أن الشعر والموسيقى والرقص ليست هروبًا من حالة ما، بل إن تحركه كان حركة تعبَّر عن الانسجام بين الداخل والخارج، كذلك الموسيقى انسجام بين الداخل والخارج. أما الشعر فهو التعبير عن التفكير بواسطة اللغة. إن منظومة الغناء تتجلى بشكل تعبيري وانسجام في وحدة الوجود وبشكل محسوس وبآليات صوفية وبأشكال تحمل الحكمة والفلسفة والدين. يقول جلال الدين عن هذه النقلة من حال إلى حال في إحدى رباعياته: «عندما اشتعلت نيران الحب في صدري أحرق لهيبها كل ما كان في قلبي، فازدريت العقل الدقيق والمدرسة والكتاب، وعملت على اكتساب صناعة الشعر وتعلمت النظم»[٦].

إن اشتعال نيران الحب في صدر جلال الدين ليس إلا ذلك الانشغال الدائم في

التفكير وإعمال الذهن للوصول إلى القيم والأحكام والمعايير، ويقصد من قوله: «ازدريت العقل الدقيق أي العقل المحض الذي لا علاقة له بالمحسوس والمجرَّب». أما المدرسة والكتاب فهما بالنسبة إليه الوسائل التقليدية التي لا تمنح الإنسان ذلك الألق المعرفي، لذلك طور علاقته بالموسيقى والشعر والرقص ليكونوا وسائله التعبيرية عن منظومته المعرفية التي نتجت عن رحلة العقل مع أستاذه شمس تبريز.

من هنا يمكننا فهم قوله: «كنت نيئًا ثم أنضجت وأنا الآن محترق». هذه الكلمات التي تصور مراحل رحلته المعرفية ووصوله إلى العرفان. وقد دأب جلال الدين على استخدام لغة النار ذلك أنها لديه الأكثر قدرة على التعبير عن الحالة المعرفية التي يعيشها بقوله: «إنها حرقة القلب هي كل ما أريد، وهذه الحرقة هي كل شيء، هي أنفس من امبراطورية دنيوية، إنها تدعو الله سرًا في جوف الليل».

لقد جعل «الحرقة» كل شيء و«كل ما يريد» و«أنفس من امبراطورية»، فما الذي حققه جلال الدين من هذه الحرقة؟ وما هي هذه الحرقة حتى يصفها بكل هذه الصفات؟ إن هذه الحرقة هي نتاج تفاعل العقل والوجدان وتشاركهما في بناء الرحلة المعرفية للوصول إلى المعايير والقيم المضافة والأحكام الدقيقة، إنه الانشغال الدائم بالتحصيل المعرفي والتوق المستمر إلى المعيار الأعلى، لذلك أطلق على الجيشان الوجداني وإعمال العقل اسم الحرقة، لأن النار والاحتراق يمثلان السرعة في الوصول والإحاطة، بذلك الداخل المتحفز للتفاعل مع الخارج.

إن هذه الحالة سُميت حرقةً وعشقًا وحبًا وسكرًا وغير ذلك من مسميات تدل على الترابط والاندفاع نحو الهدف والاستغراق به.

ديوان المثنوي:

ويمكننا القول أن ديوان المثنوي هو جزء من تلك المنظومة المعرفية والتي تجسدت بوساطة اللغة الشعرية.

وقد قام جلال الدين بنظم *المثنوي* بناء على طلب مريده حسن حسام الدين، ليكون للمريدين مرشدًا ودليلاً على غرار *حديقة الحقيقة* للسنائي. وكانت الأبيات الثمانية

عشر الأولى من المثنوي قد كتبها جلال الدين بخط يده، ثم راح يملي أبيات المثنوي على مريده حسن حسام الدين.

يبدأ جلال الدين *ديوان المثنوي* بمقدمة يذكر فيها صفات ديوانه، ثم يتحدث عن محتوياته، ثم يذكر حسن حسام الدين بالكثير من الحب، ويمدحه مدحًا يظن المرء لأول وهلة أنه مبالغ فيها.

إن من يمعن التفكير في وصف *المثنوي* بكلمات وتعابير قرآنية يظن أنه يصف القرآن نفسه، ولكن من طرف خفي يشير إلى أن *المثنوي* هو كشف وشرح كيفية الوصول إلى المعرفة العرفانية، مهتديًا بالقرآن الكريم. وهو بهذه الصفات القرآنية يرمز إلى مجموعة القضايا المعرفية المؤلفة له، ولأن الرمز هو أسلوب من أساليبه التي يقدّم من خلالها أفكاره، ولأن الفِكَر المؤلِّفة للمثنوي عميقة ولا يمكن الإحاطة بها، لذا فقد فضَّل الإشارة على تطويل العبارة، لذلك يقول: «اقتصارنا على القليل يدل على الكثير، والجرعة تدل على الغدير، والحفنة تدل على البيدر الكبير»[٧]. وفي القسم الثاني من المقدمة يتحدث عن محتوى المثنوي والكيفية التي قدم بها هذا المحتوى يقول: «اجتهدت في تطويل *المثنوي* المشتمل على الغرائب والنوادر وغرر المقالات، ودرر الدلالات، وطريقة الزهَّاد، وحديقة العبّاد، قصيرة المباني، كثيرة المعاني. ثم يختم المقدمة بالحديث عن حسن حسام الدين الذي كان السبب في نظم المثنوي، وقد وصفه بما يتناسب مع حبه وامتنانه وعرفانه له.

أما تعريف *المثنوي* بأنه المزدوج المنظوم على بحر الرمل، فهو تعريف يطال الشكل فقط ويغفل المضمون. ولكن البناء المنطقي لمنظومة جلال الدين المعرفية تمكننا من القول بأن المثنوي هو مجموعة من الروابط الثنائية، بين الإنسان ونفسه، الإنسان والمحيط، والإنسان والكون، والإنسان والخالق، تخرج منها إلى علاقات انسجام وتناغم ضمن أسلوب تصويري رائع، واستخدام دلالة اللغة منتقلاً منها إلى تجريد الفكرة.

وقد يظن البعض أن أسلوب الاستطراد في المثنوي لا ترابط بين أفكاره، والحقيقة أن الترابط موجود في عملية التجريد التي هي جزء من منظومة المثنوي. من هنا يتبين لنا أن بعض المستشرقين ينسبون هذا الترابط إلى الإيقاع وإلى الروحانية، مما يدلل على

رؤيتهم السطحية للمثنوي، ولجوئهم إلى مفهوم الروحانية باعتباره غير واضح المعالم، للهروب من الغوص في أعماق المثنوي واكتشاف أسرار علاقاته الدقيقة.

والمثنوي هو حصيلة إدراك جلال الدين لمعاني *القرآن الكريم* وحكمته، فالقرآن الكريم كتاب الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن. يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. *فالمثنوي* ينطوي على خير كثير من كنوز *القرآن الكريم* ودرره. ومن هنا جاءت تسمية *المثنوي* :قرآن القرآن، أي القراءة العميقة لكتاب الله العزيز.

ويوضح جلال الدين الرومي حقيقتين هامتين عن المثنوي: الأولى تتعلق بشكل الحكايات ومعناها يقول: «سيدرك المريد أن الحكايات مثل المكيال والمعنى الحَبّ الذي يحتويه، فالعاقل يأخذ حَبّ المعنى لا يتوقف عند المكيال»[٨]. يريد من قوله هذا أنه يقدم المعنى في قالب حكائي والهدف الحقيقي هو المعنى وليس الحكاية.

أما الثانية فيُعنى بالهدف الذي نظم لأجله *المثنوي* يقول: «لم أنظم لك المثنوي لتحفظه أو تعيده، بل ابتغاء أن تضعه تحت قدميك لتستطيع الطيران، فالمثنوي هو سلم العروج نحو الحقيقة. كل ما فيه ينبغي أن يُرى بذلك المنظور. وإن كان الصوفية يستخدمون التمثيلات والصور فذلك لمساعدة الإنسان ذي القلب الهائم والعقل الضعيف على إدراك الحقيقة»[٩].

فالهدف من المثنوي ليس حظفه وترديده، بل هو وسيلة المريد لإعمال العقل والانطلاق إلى عالم المعرفة، فالهدف من نظمه هو بناء الإنسان بناءاً عقليًا ووجدانيًا لا تجميد تفكيره وسجنه بين السطور، واستخدام التمثيلات والصور ليس غاية بحد ذاته، بل الهدف هو تقريب الفكرة من ذهن المتلقي وتحريض عقله على تطويرها.

هذا هو مولانا جلال الدين الرومي وهذا مثنويُّه الذي شغل به الشرق والغرب، وألّف على غراره الكثير من المثنويات، كما ألّف كثير من الدراسات حوله وترجم إلى معظم لغات العالم، لقد حظي المؤلف والمؤلَّف بالاهتمام الكبير لأنه إنساني النزعة، فلسفي النظرة منطقي الفكرة، عميق في وجدانيته.

شرح قصيدة الناي:

تمثّل قصيدة الناي في المثنوي القصيدة الأمّ، تشابه في موقعها هذا سورة الفاتحة أمّ

الكتاب في القرآن الكريم، ولعلَّ السَّبب الجوهر الـذي يـدعو إلى هـذا القـول أنَّ فكـرة العشق وحقيقته ورمز النَّاي ودلالته يكمن فيها أولاً، ولأنَّ فكـرة العـشق هـي الفكـرة الأساس التي يدور حولها المثنوي.

تدور فكرة القصيدة حول ذلك الانجذاب الذي يتولد لدى الإنسان عندما يطهر نفسه ويصقل قلبه، فيصبح كالمرآة الصافية، فيغدو انعكاسًا لكل ما هو جميل، ومن اللافـت أن هذه القصيدة الرائعة تحكي نتائج الوصول وما تؤول إليه حال العارف عندما يقوم العقل والوجدان بتلك العملية التشاركية التي ترقى بالإنسان إلى موقـع القـدرة علـى إطـلاق الحكم وفق معايير دقيقة وقيم مضافة.

ولأن الإنسان هو الهدف الرئيس لمولانا جلال الـدين ولأن رسـالته مثـال إنـسانية شاملة، يمكن القول أن تلك النار التي تضطرم داخل الإنسان وتجعله في حركـة وشـوق دائمين للتوجه نحو المعيار الأعلى، هي الجيشان الوجداني والتألق العقلي، تلك لحظـات لا يعرفها إلا من يعيشها ويعانيها وقد عبر عنها مولانا جلال الـدين بتعـابير مغرقـة في الرمزية، لا لكي تكون مغلقة على المتلقي، بل لأن هذا الأسلوب أكثر جاذبيـة وقـدرة على التأثير في المتلقي.

الناي هو أي إنسان يبحث عن سر وجوده ولعل ما يستشف مـن القـصيدة التأكيـد على تلك العلاقة الروحية بين الخالق والمخلوق من خلال الانجذاب الذي تحدثـه نفخـة الروح، التي هي نفخة إلهية، فتغدو هي المحرك الأساس لحياة الإنسان وعمله وسيره نحو المعيار الأعلى.

كما تشير القصيدة إلى موازنة بين من يستخدم حواسه الخارجية وحدها في محاولـة الفهم والإدراك، وبين أولئك الذين يشركون معها عقولهم وقدراتهم الفكريـة ليـستطيعوا التغلغل إلى عمق الظاهرة ورؤيتها رؤية عقلية وجدانية واضحة.

إن من لا يُعمل العقل ولا يفعِّل الوجدان يغدو هباء لا فائدة ترجى منـه، ذلـك أنـه سيبقى يرى كل شيء من خلال أناه المتضخمة، كما أنه لن يتمكن من رؤية الأشياء إلا كما يراها هو لا كما هي حقيقة، ولذلك يقول عنه جلال الدين في القـصيدة بأنَّـه حُـرِم ذلك النُّور وهذا الوعي وسرعان ما يملونها ويخرجون منها، شـأنهم في ذلـك شـأن مـن

يعيش في وسط لا يمتّ له بصلة، فالحيتان تعيش في الماء لأنّه وسطها الذي خلقت فيه، أمّا غير الحيتان فإنّها تملّ الماء سريعًا وتبتعد عنه.

إنَّ الحياة تتطلَّب من الإنسان الشَّجاعة والإقدام على الخوض في غمارها، وسرّ هذه الحركة هي تلك النَّار المضطرمة داخله والتي منبعها الرَّغبة والعشق والتَّوق الى إدراك حقائق الحياة.

إنَّ ناي جلال الدّين صورة ذلك العارف الذي وصل الى مرحلة العشق، باذلاً في ذلك روحه ودمه، ومحاولاً أن يتخطَّى عقبات النَّفس التي هي أعدى أعداء الإنسان، ذلك أنَّها تقف حائلاً بينه وبين رقيّه الوجداني والإنساني.

أكاد أستشفّ من هذه القصيدة صرخة مولانا جلال الدين التي تدعو الإنسان ليربأ بنفسه عن كلّ ما يدنِّس طهره الفكري والإنساني، ويبتعد عن كلّ ما يجعله يسلك مسالك الخطأ فيردى فيها.

إنَّها صرخة الإنسان للإنسان، فيها الكثير من العطف واللطف والحنان، ليتَّجه إلى داخله ويعيد صياغة تفكيره من جديد وفقًا للرؤى الإنسانية، إنَّ حياة الإنسان ثمينة وقيمتها الحقيقيَّة تكمن فيما يقدَّمه من فائدة، ذلك أنَّ الخلق كلّهم عيال الله، وأحبّ خلقه إليه أنفعهم لعياله.

يعدّ الرَّمز عند مولانا جلال الدّين أسلوبًا هامًّا من أساليبه في توصيل فكره، رغبةً في إعمال العقل والاشتغال بالإشارة والاستغناء عن تطويل العبارة.

في قصيدة النّاي وجد مولانا في هذه الأداة الموسيقيّة خير من يمثّله في التَّعبير عن حاله، فكلاهما يعاني الانفصال عن موطنه، والنَّاي لا يصدح بألحانه إلا إذا كان هناك من ينفخ فيه الهواء، كذلك مولانا لا يمكنه التَّعبير عن خلجاته من غير نفخة الرُّوح التي وهبه الله إيَّاها. وكيف لا يكون بينهما هذا التشابه وهذا التجانس وقد عانا المعاناة نفسها.

يقول أحد الشعراء:

لا يدرك الوجد إلاّ من يكابده ولا الصَّبابة إلاّ من يعانيها

ويرمز إلى النَّاس بالغاب الذين ينتظرون العشق ليضرم فيهم هذه النَّار.

يقول مولانا: «نحن الغاب وعشقه نار، ونحن ننتظر أن تضرَم هذه النَّار في النَّاي»[١٠].

إنَّ اللّوعة والحرقة التي تصدر من أنين النَّاي هي خير تعبير عمّا يعانيه هؤلاء النّاس من هموم مختلفة.

إنَّ سر النُّواح يكمن في البحث الدَّائم عن الأصل، من أين أتى، والى أين يذهب، كيف كان المبدأ وكيف يكون المعاد؟.

وديوان *المثنوي* يحفل بهذه العلوم والمعارف فهو دليل السَّالك الى مراحل خلقه ويحمله الى منازل رحلته الطويلة.

وإنَّ محاولة معرفة المبدأ والمعاد لا تقتصر على السّعداء فحسب، بل الأشقياء أيضًا يظنُّون أنفسهم أنَّهم على وصل وهم في فصل، كما يظنُّون القربى وهم في بعد لذلك أدركهم الشَّقاء وأحاط بهم لأنَّهم لم يعرفوا المبدأ فلم يصلوا الى المعاد.

وقد يظنُّ كلّ واحد أن لديه معرفة بحالي ولكن الظنّ لا يغني من العلم شيئًا وكيف يمكن أن يدرك ما أنا به وكيف يمكن أن يصل الى أسراري» إنه لن يتمكَّن من كلّ ذلك دون بحث وجهاد، كما لا بدَّ له أن يخوض غمار التَّجربة التي أنا فيها.

إنَّ سرّي غير مفصول عن نواحي، ذلك أن صوتي يبوح بمكنون ذاتي، إنَّه أحوج ما يكون الى نور المعرفة لكي يستطيع أن يسمع ويرى من خلال هذا النُّور، فإنَّ لكثير من النّاس آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يصبرون بها، ذلك إنَّ ما ينقصهم هو إعمال العقل والاتجاه نحو العلم والمعرفة لتتفتّح البصيرة وليهب الله هذا الإنسان قلبًا عارفًا.

إنَّ حياة الإنسان تكمن في وجود الرُّوح مع الجسد ولكن ليس لأحد أن يراها أو يلمسها فلا يمكن معاينتها ولكن يمكن إدراك وجودها بآثارها.

وإنَّ هذا الأنين ليس مجرَّد هواء ينفخ في النَّاي ليصدر صوتًا، إنَّه في الحقيقة النَّار التي تطهّر النَّفس من الدنس، إنَّها التي تحرق كلّ شيء في القلب ولا يبقى إلا الله.

والنَّار حقيقة هي العشق نفسه، إنّه الإفراط في الحبّ، فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّه﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي صار حبّها يوسف على قلبها كالشغّاف على

الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب، فالعشق التفاف المحبّ على المحبوب.

ومن لم يذق طعم العشق ولم يحترق بناره يغدو هباءاً. إذ لا طعم ولا معنى للحياة بدونه.

فأيّ نار تلك التي اضطرمت في النَّاي؟ وما ذلك الغليان التي سرى في الخمرة؟ إنَّها نار العشق! النّار التي أشعلتها المعرفة وأوقدها صفاء الرّوح، كذلك فإنَّ الخمرة عند الرّومي هي المعرفة، وقد سرى العشق في كلّ الموجودات، إنّ العشق والمعرفة العرفانيّة شيء واحد، كلاهما محرّض وكلاهما يوقد النّار التي تطهّر كل شيء، وتصبح قوّة محرّكة نحو المعشوق. إنّ النَّاي بصوته الرَّخيم صديق لكلّ من افترق عن أليفه. كذلك مولانا جلال الدّين الذي يعرف كوامن الأحزان لدى أولئك الذين افترقوا عن أحبَّتهم، لذلك هو صديقهم ومرشدهم.

كما أنَّ أنغام النَّاي الرقيقة تجعل الحبّ يبوح بأسراره ويكشف عن أحزانه، كذلك مولانا جلال الدين يغدو بيت سرّ كلّ العشّاق الذين يخفون أسرارهم وتتكشّف حجب أسرارهم بذلك الأنين وتطهّر الأسرار بعد البوح.

إنَّ صوت النّاي سمّ لأولئك الذين ينعمون بحبّ الدُّنيا، ولا يدركون من أحوالهم شيئًا، وهو ترياق وشفاء لأوئك الذين يعانون من ألم الشوق إلى الحقيقة.

والنَّاي أيضًا بألحانه المفعمة بالعذوبة. يستثير بنجواه الشوق الدّائم وكأنه يناجي الرُّوح ويدعوها الى التَّفكر والرّغبة في المعرفة، إنّ النَّاي خير محدِّث عن طريق العشق المليء بالصَّعاب، والذي يبذل فيه العاشق دمه ليصل الى ذلك النور السرمدي. وبذل الرّوح في طريق العشق هو ديدن العاشقين، والنَّاي تحكي قصص أولئك الذين عاشوا هذه الحالة وقدَّموا أرواحهم ثمنًا لها.

كيف يمكن لذلك الذي يُعمل العقل لإدراك حال العشق أن يصل إلى العشق من خلال ما يتساءل عنه إنَّه لن يستطيع إلى ذلك سبيلاً، إذا لم يتخلَّ عن أسئلته هذه ويتّجه الى العشق نفسه، فوسيلة العلم العقل، ووسيلة العشق القلب، وكلّ ميسَّر لما خلق له، كما يسِّرت الأذن لسماع اللسان.

إنَّ طريق العشق مليء بالأحزان ومهما كان العنت والمشقَّة التي تفاجئ العشَّاق في أي وقت كان فإنَّ عزاءهم الوحيد أنّ الهدف يستحق، لأنه هو الباقي والمنزَّه في طهر لا مثيل له، وجمال المقصد يهوّن مصاعب الطريق إنّ العشَّاق الحقيقيين لا يملّون الارتواء

من ماء المعرفة، وفيض العلم فقد ألفوا المشقَّة في طريق المعرفة كما تألف الحيتان المـاء. أمّا أولئك الذي لا يصبرون على هذا الطريق فسرعان ما يملّون منه ويبتعدون عنه.

إنَّ أهل العرفان لا يشعرون بطول الزَّمان وتوالي الأيَّام فهم في حضور دائـم وتجـدُّد مستمر وإنَّ الشعور بثقل الوقت وطول الأيّام لا يصيب إلا أولئـك الـذين لم يكـن لهـم نصيب من هذا الفيض وهذا القوت فتتشابه لديهم الأيّـام ويزحـف الملـل إلى نفوسـهم ويحرمون فرصة الدُّخول في عالم العشق، يقول ابن الفارض:

فلا عيش في الدُّنيا لمن كـان صـاحيًا ومن لم يمت سُـكرًا بهـا فاتـه الحـزمُ
على نفسه فليبكِ من ضـــاع عمـره وليـــس لـــه منها نصيـــب ولا سهم

إنَّها أحوال أهل العرفان، لا يدركها إلاّ أمثالهم ممَّن ساروا في طريق العشق، ولاقـوا المعاناة نفسها، أمَّا الذين لم يذوقوا طعم العشق ولا سـلكوا الطريـق ليـسوا إلاّ سـذَّجًا أفجاجًا، وليس لهم أن يتحدَّثوا عن أهل العشق.

وقصر الكلام خير من التَّطويل فيه، لأنّ الاستفاضة في الحديث عـن العـشَّاق ونـار العشق ليس بطول العبارة، بل بحسن الحديث عنهم، ويمكن أن ندرك أنَّ قـصيدة النَّـاي ليست إلاّ رؤية شاعر الإنسانية لتلك العلاقـات الثنائيّـة، إلى البعـد الآخـر الـذي هـو الانسجام بين الجسد والرُّوح بين الإنسان والكون.. إلخ من الثنائيّات الأخرى.

الهوامش:

١ ـ ايفا ديفتري، *جلال الدين الرومي والتصوف* ص ٢٢ .
٢ ـ آنيماري شيميل، *الشمس المنتصرة* ، ص ١٦٠ .
٣ ـ آنيماري شيميل ، *الشمس المنتصرة* ، ص ١٦٠.
٤ ـ آنيماري شيميل، *الشمس المنتصرة*، ص ١٦٠.
٥ ـ إيفا ديفتري، *جلال الدين الرومي والتصوُّف* ، ص ٣٥.
٦ ـ مقدمة *المثنوي*، ص ٤.
٧ ـ مقدمة *ديوان المثنوي* ص ٣٣.
٨ ـ *المثنوي* ٣٦٢٢/٢.
٩ ـ *المثنوي* ١١٧/٦ وما بعد.
١٠ ـ *كليَّات ديوان شمس* ص ٣٣٨.